ليـــــلة نابغيـــــة !

للدكتور زكى مبـــارك

أخى الأستاذ الزيات :

فى نيتى أن أريح قراء « الرسالة » من شطحات قلمى شهراً أو شهرين لأفرُغ لواجبات أدبية لا يصح معها الانشغال بمواجهة القراء من أسبوع إلى أسبوع، وهى واجبات كواجبات الفراء[1]

وقبل أن أشرع فى تناسى الشوق إلى قرائى ، وهو تناس موجع ، أصوّر لك ولهم ما وقع بينى وبين الأستاذ لطفى جمعة ليلة المناظرة بكلية الآداب ، وكانت مناظرة عنيفة لا يزال صداها يقرع سمعى فيبدّد ما أشتهيه من الأنس بالهدوء والصفاء

وما ذكرتُ تلك المناظرة إلا جزعتُ ، وتولانى الندم على الاشتراك فى جدال يضيق به صدر الغالب والمغلوب ، لأنه لم يمض بلا هنوات مزعجات

ولهذه المناظرة تاريخ :

سألنى فريق من أعضاء اتحاد كلية الآداب أن أشترك فى مناظرات هذا الموسم ، وعرضوا علىّ طوائف من الموضوعات لم يرقنى منها غير موضوع :

« يزدهر الأدب فى عصور الفوضى الأخلاقية »

ولكنى اقترحت أن يُعدّل فتوضع « الفوضى الاجتماعية » مكان « الفوضى الأخلاقية » فراراً من التجنى على كلية الآداب باسم الغيرة على الأخلاق !

ومضت أيام وأسابيع، والاتحاد مشغول بالبحث عمن يناظرنى من أساتذة كلية الآداب ، ثم علمت أن الأساتذة لم يَرُقهم أن يناظروا « المشاغب الأكبر » على حد تعبير الدكتور هيكل باشا وهل من العقل أن يتقدم أحد الأساتذة لمناظرتى وقد شاع وذاع أنى أكبر المشاغبين ؟ !

هى تهمة ظالمة ، كما تعرف ، ولكنها حقّت علىّ ، وسأقضى بقية العمر فى الدفاع عن نفسى ، ولكن بلا نفع ولا غناء ، لأن الناس عندنا يؤذيهم أن يصححوا رأيهم فى رجل ظلموه بلا بينة ولا برهان !

وأخيراً ، ظفر اتحاد الكلية برجل يناظرنى . ولكن ، أى رجل؟ كاتب مشهور كانت لى معه وقائع فى بعض الجرائد والمجلات؟ فقلت فى نفسى : هى مكرمة من مكرمات الأستاذ لطفى جمعة ، فقد هداه القلب الطيب إلى أننى رجل ينهاه الأدب والذوق عن الاستخفاف بأقدار الزملاء

واتصلت به تليفونيًا لأقول له : إنى أريد أن تكون هذه المناظرة مثالاً فى التلطف والترفق ، وإنى سأبدأ خطبتى بكلمة فى الثناء عليه ، وإنى أنتظر أن يقابل الجميل بالجميل !

وكنت صادقاً فيما قلت ، لولا خاطرٌ واحد كدّر صدق بعض التكدير ، وهو الحرص على أن يبقى هذا المُناظر فلا يطير من يدى ، كما طار من كنت أرجو مناظرتهم من أساتذة الكلية . صفح الله عنهم وعفا عنى ! !

كان الأستاذ لطفى جمعة متردداً فى القبول، ثم قبل بعد تمنُّع؛ والحرُّ قد ينخدع فى بعض الأحايين !

وفى تلك الأثناء نقلت الإذاعة اللاسلكية مناظرة قامت بين الدكتور طه والدكتور هيكل فى كلية العلوم ، مناظرة مرتجلة قام بها الرجلان بدون استعداد ، فقلت : يجب أن أستعدّ لتكون

(١) إشارة إلى قول الفراء : « سأموت وفى نفسى شىء من حتى » ويريد الكاتب أن يقول إن للباحثين شواغل قد يراها الجمهور من التوافه مع أنها فى الواقع من الأمور ذوات البال عند من يعرف

الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار . اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار . . . »

كلام مدير فيه الإدارة والرياسة هبة من هبات الخلق والتكوين ، فهو مدير حين تكون الإدارة تدبير أمور ، ومدير حين تكون الإدارة تدبير شعور ، وهو كفيل ألا يلى مصلحة من المصالح تستورها الفوضى ويتطرق إليها الاختلال ، لأنه يسوسها بالنظام وبالتبعة، وبالاختصاص وبالسماحة. وما من مجتمع يساس بهذه الخصال ويبقى فيه منفذ بعدها لاختلال أو انحلال ، أو خطل فى إدارة الأعمال .

عباس محمود العقاد

مناظرة كلية الآداب أقوى من مناظرة كلية العلوم ، ولأعطى الدكتور طه والدكتور هيكل درساً فى وجوب الاحتفال بمقامات الكلام ، ولأحمى نفسى من شر الرجفين ، وأنا أدافع عن رأى شائك لا ينظر إليه المجتمع بغير الاستخفاف

ورجعت إلى مذكرات كنت أعددتها يومَ عُرِض عليَّ الموضوع أول مرة ، ولكنى لم أجد تلك المذكرات ، فأقبلت على الموضوع من جديد وشغلت به نفسى سهرتين طويلتين ليصل فى الجودة والقوة إلى ما أريد

وبعد أن فرغت من تحريره وتحبيره دعوت أحد أبنائى ليقرأه علىَّ فكانت فرصة لدرس طريف من دروس التربية ، فقد عرفت أن الرجل لا يدرك ما فى أسلوبه من نَبَوات إلا حين يسمعه من رجل سواه ، وكذلك غيَّرتُ بعض الألفاظ وعدَّلتُ بعض التعابير ، فظهرت الخطبة وهى فنٌّ من الكلام المصقول

* * *

ثم مضيت إلى كلية الآداب فى أصيل اليوم الأول من أيام آذار ، ولا يمكن الوصول إلى كلية الآداب إلا بالسير فى شارع فؤاد الذى يعبُر الزمالك مرة ويعبُر النيل مرتين ، ثم انعطفت السيارة فسايرت النيل حتى وصلت إلى شارع الجامعة المصرية ، عليه وعليها أطيب التحيات !

هو اليوم الأول من أيام آذار ، وأيام مصر كلها آذار ، فما تعرف بلادنا غير نضرة النعيم فى جميع الفصول

ونظرت فى الساعة فلم أجد من فسحة الوقت غير خمس دقائق ، وهى مدة لا تسمح باجتلاء المحاسن فى شارع الجامعة ، الشارع الجميل الذى كان يستهوينى فأسير فيه بتأدب واستحياء رعاية لحقوق العين والقلب فى البقعة التى صارت مراتع ظباء ، ومرابض أسود

الله أكبر ولله الحمد !

هذه كلية الآداب التى قضيتُ فيها مواسم شبابى ، يوم كنت فتًى عارم العزيمة يؤذيه أن يقال إن فى الدنيا كتاباً لم يطلع عليه ، ويوم كنت معمور القلب بأرواح الأمانى ، ويوم كنت أتوهم أن الجِد فى طلب العلم لا يظفر صاحبه بغير الإعزاز والتبجيل ، ويوم كنت إخال أن الكفاح فى سبيل الأدب قد تنسب له المواريث ، ويوم كنت أومن بأن الجهاد لا يضيع فى هذه البلاد !!!

تقع كليتنا الغالية على يمين من يدخل حَرَم الجامعة المصرية ، جامعة فؤاد الأول . وسميت بذلك ، لأن فؤاداً العظيم كان أول رئيس للجامعة المصرية . وكليتنا الغالية لها روح قهار ، لأنها شرعت للناس مذاهب التفكير فى الآداب والفنون ، ولأنها أول معهد فى مصر فتح أبوابه لحرية الفكر والعقل بلا تمييز بين العقائد والآراء

كاد الدمع يطفر من عينى حين دخلتُ كليتنا الغالية ، فقد خُيِّل إلىَّ أن أحجارها لا تنطق ، وإلا فكيف غاب عنى تفصيل ما فيها من حُجُرات وغُرُفات ؟ وكيف نسيتُ الأماكن التى كنت ألقى فيها دروسى ومحاضراتى على قرب المعهد ؟ وكيف غفلتْ عَتَباتها عن الوُثُوب لمصافحتى وقد صحبتُها طالباً ومدرساً من سنة ١٩١٣ إلى سنة ١٩٣٧ ودرت معها من ميدان الاسماعيلية إلى ميدان الفلكى ، ومن حى المنيرة إلى قصر الزعفران ، ثم إلى حديقة الأورمان ، ولم يزاحم هواها فى فؤادى غير الأعوام التى قضيتها بكلية الآداب فى جامعة باريس ؟

وزاد فى أسائى وشجاى أنى سأخرج مهزوماً فى المناظرة التى تقام بكليتنا الغالية ، لأنى سأدافع عن رأى جرىء لا يقول به إلا من يخاطر بنفسه فيتعرض لغضب المجتمع . ولكن لا بأس فكليتنا الغالية قد علمتنا الثورة على أوهام المجتمع

وألفتُ ما تبدد من شمل عزيمتى وصعدت إلى غرفة الأساتذة ، الغرفة التى صاولتُ فيها من صاولتُ ، وكايدتُ من كايدتُ ، يوم كنت أحسب أن مغايظة الرجال لن تكون لها عواقب سود ... فماذا رأيت ؟

رأيت الأستاذ لطفى جمعة قد انحاز إلى شابين من طلبة الكلية يدبِّر معهما خطط النضال ، فأردت أن أفسد ذلك التدبير بدعوته إلى المسارعة بالنزول إلى المدرَّج الأكبر حيث ينتظر جمهور المستمعين . ولكنى لم أفلح ، فقد تعلل بأنه ينتظر فنجاناً من القهوة ، ورجانى أن أعفيه من حضورى لحظات !

وسألت عن نصيرىَّ فى المناظرة فرأيت فتاة حييَّة اسمها ليلى ، وفتًى ناشئاً اسمه صادق ، فحدقت فيهما وقلت : أين تقعان مما أريد ؟!

ونزلت إلى المدرَّج بعد أن أعلن الدكتور ابراهيم مدكور أن الطلبة هم الذين سيبدأون ثم تقع الموقعة بينى وبين غريمى

وبعد تلبُّث وتمكُّث حضر الأستاذ لطفي جمعه ومعه نصيراه من الطلبة، ونصيرٌ ثالث هو الدكتور أحمد موسى، وهو فيما سمعت أديب متمكن من ناصية الفكر والبيان

ثم صرّح رئيس المناظرة بأنه أستاذ ونائب، وأنه سيطبِّق اللائحة الداخلية إذا وقع بين المتناظرين شجار، فعرفتُ أن الأمر جدٌّ في جد، وأني سأعاني من هذه المناظرة ليلةً نابغية

وشرعتْ ليلى تتكلم، ليلى يوسف، وهي فتاة جمَّلها الله بالأدب والحياء، فما كانت إلا دُمية مصقولة صيغت من العقل والذوق، وسيكون لها في حياة الأدب تاريخ، وقد تفوق الفتاة المبغومة الصوت التي نضجت قبل الأوان فأضر بها الزهو والخيلاء

ولكن ليلى ستلحن كما تلحن سائر « الليالى » ستلحن لحناً خفيفاً في مواطن لا تسلَم فيها ألسنة « بعض » الأساتذة، ومع ذلك يثور الجمهور ويصخب ليصح له أن يضايقني ويضايقها باسم الغيرة على قواعد اللغة العربية !

ثم يتكلم الشيال أفندي فيقترح أن يحال الدكتور زكي مبارك إلى المعاش لأنه من دعاة الفوضى الاجتماعية ولأن مؤلفاته تشهد بأنه يستهين بالعادات والتقاليد !

ويتكلم بعد ذلك محمد عبد الرحمن صادق أفندي بأسلوب يشهد بأنه من طلبة كلية الآداب، كليتنا الغالية التي نذكر عهدها بالحب والعطف، ونعرف فضلها في تثقيف الأذواق والعقول

ويميل بدير متولي أفندي على أذني فيسرُّ إليَّ أنه قد يستبيح ما لا يباح في تحقير الرأي الذي أرتضيه، فآذن له بذلك، لأني من أقوى أنصار حرية الرأي، ولكن الفتى يخلف ظني به كل الإخلاف فيملأ عجبه من أن أكون مفتشاً بوزارة المعارف مع أني من دعاة الفوضى الاجتماعية، ويدعو الجمهور إلى الحذر من آرائي !

ويجيء دوري في الكلام فأبدأ بالثناء على الطالبين اللذين شتماني بلا ترفق ولا استيقاء، لأنهما من طلبة كليتنا الغالية، ولأنهما سمعا أصوات مصطفى عبد الرازق وطه حسين وشفيق غربال، ولأننا حضرنا لتمرينهم على النضال والصيال

ثم أشرع في الخطبة التي أعددتها في سهرتين طويلتين، وبعد لحظات يقوم شاب ثائر فيقاطعني مقاطعة عنيفة ويؤلب عليَّ الجمهور بشطط وإسراف، وأنظر فأراه أحد تلاميذي، التلاميذ الذين كنت أشقى في سبيلهم إلى عهد قريب

ويدور رأسي من هول ما أراه، فهذا الشاب كان موضع ثقتي، وكنت أكرمه لنفسه ولأخيه ولقرب بلده من سنتريس

وتطوف بذهني أخيلة مزعجة : فليس هذا الشاب أول من يغدر ويخون، وليست ليلتي هذه أول ليالي في المحرجات والمضجرات، ولن تكون آخر العهد بشقائي في رحاب كلية الآداب، فسأرجع إليها لخدمة الأدب والفلسفة بعد عهد قريب أو بعيد، يوم يعتدل الميزان . وأنظر فأرى الأستاذ لطفي جمعة قد اطمأن واستراح، وأرى أنصاره في جذل وانشراح

هي إذن معركة جدية سأنهزم في ميدانها المشئوم وسيلحقني عارها الباقي، والله الحفيظ !

وينهض رئيس المناظرة فيهدد الشاب الذي يقاطعني، يهدده بالطرد، فيخشع الشاب ويستكين، ويصفق الجمهور إيذاناً بالشوق لسماع صوتي، فأمضي في إلقاء خطبتي وأنا جريح، وأضيف إلى خطبتي كلمة أقول فيها : إني اشتغلت بالتدريس في كلية الآداب أربع سنين ومن حقي عليها أن تسمح بأن أجهر في رحابها بكلمة الحق

وما قيمة الاشتغال بالتدريس أربع سنين في معهد مصري وقد صرّح شاعرنا شوقي بأن كل شيء في مصر ينسى بعد حين !

ما قيمة الاعتماد على الماضي وهو ذُخر الفانين ؟ وبأي حق أغضب على شاب يقاطعني وقد أخذ عني أصول الثورة والصيال !

ثم أمضي في خطبتي كالسيل الجارف فأفتن الجمهور فتنة ماحقة يضج لها خصومي بتصفيق الإعجاب ليسلَموا من سخرية الجمهور الذي سَحَرَهُ بياني

ويميل الأستاذ لطفي جمعة على أذني وهو يقول : أهنئك على أن عرَّضت سمعتك للأراجيف في سبيل الحق . فأبتسم وأنتظر أن يصنع كما صنعت ليظفر بتهنئتي ! وينهض الخصم الشريف فيسلك في تحقيري جميع المسالك، ويدَّعي أني فوضويٌّ أثيم، وينهى الجمهور عن الانخداع بآرائي، ويعلن عجبه من أن يكون لي كتاب اسمه التصوف الإسلامي في مجلدين كبيرين مع أني من أنصار الفوضى الاجتماعية، ويقضي في تحامله وتجنّيه ساعة وبعض ساعة وأنا ساهم مطرق أكاد أذوب من الخجل والحياء

وأعود إلى نفسي فأندم على تعريض سمعتي لهذا الضيم البغيض

وأعرف أنى أخطأت فى قبول المناظرة مع هذا الخصم الشريف ، وأعاهد الله على اعتزال الناس إلى يوم الممات . وما الذى يغريني بصحبة بني آدم ولم أر منهم غير شجا الحلوق ، وقذى العيون ؟

لقد أقمت دارى على حدود الصحراء لآنس بظلمات الليل ، ولأنسى أنى موصول الأواصر بهذا الخلق ، ولأناجى مَوات البادية حين أشاء ، ثم قهرنى حب المُزلة على أن أغلق نوافذ دارى فلا أرى الوجود إلا بأوهام من طيف الخيال

لطفى جمعة الرجل الفاضل الذى أثنيت عليه فى خطبتى يقضى فى شتمى ساعة وبعض ساعة ؟ تلك إحدى الأعاجيب ، إن كان النكر فى زماننا من الأعاجيب !

أين أنا من دهرى وزمانى ؟ أمثلى يُشتَم جهرة فى كلية الآداب ، وقد حملتُ على كاهلى أحجار الأساس ؟

هو ذلك ، وعلى نفسى أنا الجانى ، فقد عرَّضت سمعتى للجدال الذى يسمونه مناظرات ! وينتهى الأستاذ لطفى جمعة من خطبته بعد أن مزَّق آرائى كل ممزَّق ، وبعد أن شفى صدره منى ، وكانت بينى وبينه ترات وضغائن وحُقود

ويعلن رئيس المناظرة أن ليس لى غير خمس دقائق . وما الذى أستطيع أن أصنع فى خمس دقائق وقد جُرِّحت أشنع تجريح ؟ ما الذى أستطيع أن أصنع وقد سمعت ما أكره فى معهد يؤذينى أن أذكر فيه بغير الجميل ؟ فى خمس دقائق يعرف الأستاذ لطفى جمعة أن لحمى مرّ المذاق ، ويؤمن وهو كاره بأن التطاول على رجل مثلى لا يمرّ بلا جزاء ، ويعرف من قاطعونى أن شأنى أعظم مما يظنون. فى خمس دقائق تحوّل السامعون إلى من حال إلى أحوال فصاروا جميعاً من أنصارى ، فى خمس دقائق شهدت أحجار كلية الآداب بأن المنطق أعظم من التنكيت ، فى خمس دقائق عرف غريمى أن سهر الليل فى الاستعداد للحرب أمر يوجبه العقل الصحيح

وبعد كلمات ألقاها الأستاذ منصور والدكتور موسى طلب رئيس المناظرة أصوات الحاضرين فكانوا جميعاً فى صفى ، وهتف هاتف : « تحيا الفوضى الاجتماعية ! »

فأجبت : « تسقط الفوضى ويحيا النظام ! »

والآن ، يا صديقى الزيات ، أحب أن أسجل فى مجلتك ظاهرة من شمائل الجيل الجديد ، لتعرف أن اليأس الذى يساورنا قد يكون من الأوهام فى أكثر الأحايين

وهذه الظاهرة هى يقظة الجمهور فى هذا العهد ، وقلة انخداعه بالتزاويق والتهاويل . وأؤكد لك أنه كان مفهوماً عند أنصارى أنى لن أخرج من تلك المعركة بغير الهزيمة ، وأن التهاتف بالشكليات سينفع خصومى فيظفرون بالنصر المبين

وقد أراد الأستاذ لطفى جمعة أن يغض من جهودى فقال إنى شغلت نفسى بالموضوع أياماً وليالى ، ولكن هذه السخرية لم تنفع ، لأن الاستعداد للنضال من أصول التشريف ، وهو يقابل عند الجمهور بالإعزاز والتبجيل . وهل كان يجوز لى أن أستخف بمناظرة تقام فى كلية الآداب ؟

وهذا النصر الذى نظفر به من وقت إلى وقت هو الذى ينسينا ما قد نجنى من الحنظل فى الحياة الأدبية ، وهو الذى يهوّن ما نعانى من عقوق الزملاء ، أو « بعض » الزملاء !

وقد حدثتك فى مطلع هذا الحديث أنى سأريح قراء الرسالة من شطحات قلمى شهراً أو شهرين ، فلتعلم وليعلموا أنى قد أشتاق إليك وإليهم فأرجع بعد أسبوع أو أسبوعين ، والسلام .

زكى مبارك

* * *

حاشية : قرأت الكلمة الظريفة التى نشرتها الرسالة للأستاذ شكرى فيصل ، وأنا واثق بأنه رأي أمر الكتاب هيناً بعد أن قرأ خطبتى في الرسالة . أما احترامى للأقطار العربية وحبي لها وشغفى بها فهو أظهر من أن يحتاج إلى براهين .

ادارة البلديات — طرق

تقبل العطاءات بادارة البلديات (بوستة قصر الدوبارة) لغاية ظهر ٨ أبريل سنة ١٩٤٠ عن تغيير الطوب الأسفلتى بالممر السفلى بالمحلة الكبرى بآخر جديد أو بترابيع من جرانيت أسوان وتطلب الشروط من الادارة نظير ٥٠٠ مليم ٦٥٣٨